مجلة الرائد

العدد : ٢٤٣ الموافق في ربيع الأول ١٤٢٤ هجري ٢٠٠٣/٥ ميلادي

عنوان المقال : مقام التدبر العقلي في القرآن الكريم	الكاتب : أ. أبو زيد المقرئ الادريسي

إن الحالة التعسة التي تعيشها جماهير الأمة الإسلامية تعود في جزء منها ، إلى أنها ألغت العقل إلغاء شبه كامل ، وحقرت دوره وعطلت استثماره ، بل إنها فعلت ذلك أحياناً باسم الإيمان توهماً منها أن من مستلزمات الإيمان الصحيح أن يقوم الإنسان بكبح جماح العقل ولجم أسئلته المزعجة القلقة المشاغبة ، التي قد تؤدي إلى زعزعة إيمانه وتذبذب يقينه .

وهكذا كان الحصاد المر لقرون الانحطاط والمتمثل في شيوع الخرافة والشعوذة وتعاطي السحر وتصديق التنجيم والاعتماد على العرافة والكهانة على مستوى الاعتقاد . وكان شيوع التواكل ، والفوضى ، والجهل والكسل الذهني والعزوف عن العلم على مستوى السلوك . وتوّج ذلك بإغلاق باب الاجتهاد وسيطرة التقليد فالتعصب المذهبي فتقديس السابقين فالرضا بفقه الفروع الجاهز ، وهو العلم الذي تعب فيه الأوائل ولكنه ليس علماً قابلاً للتطبيق في كل مكان أو صالحاً مطلقاً لكل زمان لأنه ليس وحياً ، ولكنه اجتهاد عقل في زمان ومكان محددين لتنزيل الوحي على واقع محدد .

وعندما يتغير هذا الواقع ، نحتاج إلى إعمال الذهن من جديد في كل مقتضيات الفقه ، ولهذا نفرق بين الفقه وبين الشريعة . وهو تفريق لا يجد مسوَغه إلا في هذه الحقيقة .

وأخيراً ، انتهينا إلى التخلف التكنولوجي الذي أثمر تحكم الغرب فينا فأذلنا أيما إذلال ، فنحن نشحذ منه لقمة الخبز كما نشحذ الصاروخ والطائرة . وهذا عجز قاتل ، ولكنه عجز لا يتعلق بتوفير مقتضيات القوة والتدافع ، فعندنا منها الكثير ، وإنما يتعلق بهذه الجذور التصويرية والمعرفية المتسلسلة من سوء الظن بالعقل والخشية منه على الإيمان ، إلى وجود خلل في العقيدة وخلل في السلوك وضياع على مستوى الرؤية والمنهج . إن علينا أن نعيد الاعتبار إلى العقل بصفته نعمة من اللّه سوف نسأل عنها ، وبصفته وسيلة من وسائل التكريم والبقاء والتدافع ، وبصفته قرين الإيمان لا نقيضه ، فالعقل هو الذي يصون الإيمان تماماً كما أن الإيمان هو الذي يصون العقل . ذلك أن الإيمان بدون عقل يصبح خرافة كما أن العقل بدون إيمان يسقط في براثن الإلحاد .

لقد أمرنا اللّه سبحانه وتعالى بالتدبر في كتابه ، وأمرنا من خلال كتابه بالتدبر في كونه وخلقه وشؤونه ، أمراً يأتي في مساق الاستفهام الإنكاري : { **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ؟** } [

محمد : ٢٤] والآية تشير بطريقة غير مباشرة بأن مآل من لا يتدبر إلى الختم على قلبه . وهكذا ، تصبح الحالة الفكرية السلبية مؤشراً على الحالة الإيمانية السلبية .

ولهذا نجد الرسول ﷺ في حاله ومقاله يدعو إلى التدبر ويمارسه ويستثمره وينجزه في أرض الواقع منهجَ دعوةٍ وواقعَ دولةٍ . كيف لا وهو يقرأ قوله تعالى : { **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** } [آل عمران : ١٩٠-١٩١] ، ليقول معقباً في خشوع وتهيب : « **ويل لمن قرأهن ولم يتدبرهن** » .

وليس المقصود مجرد التدبر الإيماني المحض ، فهذا من ضرورات العقيدة ، وإنما يراد بذلك أيضاً التفكر العقلي الخالص والتأمل الذهني العميق الذي يفضي إلى الكسب المعرفي الصحيح . إنه لا بد أن نعود إلى الأصول ، إلى القرآن الكريم ، لنستقي منه ضوابط وأسساً لوضع منهجية عامة باعتماد منهج التأمل الخالص . ولقد فعلتُ شيئاً من ذلك ، لأكتشف أن القرآن الكريم ، ومن الانطلاقة ، يبسط المنهج الصحيح بهذا الصدد .

تكون المنطلقات دائماً تأسيسية ، وفي المنطلق نجد أن القرآن الكريم يعيد الاعتبار للعقل ويضعه في مقام خاص في منطلقيه التأسيسين : المنطلق النسقي والمنطلق التاريخي .

أما المنطلق النسقي فيتمثل في أول كلمة نزلت من القرآن الكريم ألا وهي " اقرأ " . وهنا وقفة لا بد منها حتى نفقه هذه الأولية ، فليس الأمر متعلقاً بأهمية القراءة وقيمتها وأهمية الشرك وقيمته فقط ، ولكن الأمر أعمق من ذلك : لقد كانت الجزيرة العربية - آنذاك - تغرق في الشرك فلعلها أحوج إلى أن يكون أول ما ينزل : " وحّد " . وكانت تغرق في الكفر فلعلها أحوج إلى أن يكون أول ما ينزل : " آمن " . وكانت تعيش ظلماً اجتماعياً قاهراً للمرأة والطفل والعبد والضعيف ، فلعله كان أولى أن يكون أول ما نزل هو : " اعدل " . لقد كان في قريش من عتاة وصناديد الملأ المكي - وهم طاغوت يصد الناس عن دين اللّه - ما لعله يحوج أن يكون أول ما نزل هو : " جاهد " .

إلا أنه لم تتنزل " آمن " أولاً ولا " وحد " ولا " جاهد " وإنما نزلت " اقرأ " ! وليس لذلك في رأيي إلا تفسير واحد يتمثل في أنه لا بد من تأسيس كل هذه الأفعال بدءاً على هذا الفعل ، فعلِ المعرفة

السليمة ، ذلك أن الإيمان بلا " اقرأ " سيصبح خرافة ، وأن الدعوة بلا " اقرأ " ستصبح تنفيراً ، وأن العبادة بلا " اقرأ " ستصبح بدعة ، وأن الجهاد بلا " اقرأ " سيصبح إرهاباً . وهكذا كان لا بد من إنارة العقل بالعلم ، فتنزل " اقرأ " هذه على رجل أمي في مجتمع أمي ، يعتز بثقافته الشفوية .

وأكثر من ذلك نرى أن التأسيس النسقي لم يكن فلتة في بداية الوحي ، وإنما انتشر في نسيج القرآن الكريم من أوله إلى آخره . ويكفي أن نقول أن لفظة العلم ومشتقاتها وردت ٧٥٠ مرة في القرآن الكريم ، وهذا كلام اللّه المبني على إعجاز الإيجاز ، ومن مقتضيات الإيجاز عدم التكرار ، فلا يكرر في مساق الإيجاز إلا ما كان ضرورياً أن يكرر لأهميته . إن الشخص العاقل - إن حدثك - لا يحتاج أن يعيد كلامه نظراً لثقل اعتباره في وعيك وقلبك ، فكيف إذا كان المتكلم هو اللّه ؟؟ إنه ليكفي أن يأتي الأمر مرة واحدة في القرآن الكريم حتى يحتل في نفوسنا ووعينا المكان الذي يليق به ، فكيف إذا تكرر بهذا الرقم الهائل ؟

أشرنا فيما سبق إلى شرف المقصد من وراء ربط الحالة الإيمانية بالحالة الفكرية ، لافتين النظر إلى الخطأ المنهجي والشرعي الذي ترتب على الاستجابة لدعوة من يريدون إلغاء العقل وتحقير دوره وتعطيل استثماره بدعوى الحفاظ على الدين . نواصل في بيان البناء العقلي في القرآن ، مركزين على لحظة عظيمة هي المنطلق التاريخي للوحي متمثلاً في اختيار " غار حراء " مكاناً لنزول أوله ، بعد أن عرضنا سابقاً أهمية المنطلق النسقي متمثلاً في اختيار كلمة " اقرأ " كأول كلمة نزلت من هذا الوحي .

أول ما يلفت الانتباه بهذا الصدد ، هو أن اختيار غار حراء ، مخالف بكل المقاييس للمنهج العام للدعوة الإسلامية ، ذلك أنها كانت تتقصد دائماً أن تبتعد عن مواطن الشبهات التي قد تثير في وجه الخطاب الدعوي النبوي زوابع التشكيك . فلقد اختير الرسول ﷺ في سن الأربعين حتى لا يقال غلام ، واختير كامل الخلق حتى لا ينتقص من خلقته ، ويكون الاستهزاء به حاجزاً بينه وبين دعوة الناس ، واختير أميّاً حُرم نعمة القراءة حتى يُقطع الطريقُ على من سيتهمونه بنقل الكتب السابقة . وكلها اختيارات لا صلة لها بأصول الإسلام ، وإنما هي مجرد مراعاة حكيمة للوضع ، تجنباً للتشويش بالشبهات .

ولا يكاد يشذ عن ذلك سوى اختيار مكان انطلاق الوحي ، فعوض أن تُختار لحظة من اللحظات الواضحة للرسول ﷺ وهو وسط الناس ، تحسباً لأن يتهم بما هو شائع في الثقافة السائدة آنذاك ، بأنه شاعر أو كاهن أو ساحر يتصل بالجن في الأماكن النائية ، اختيرت لحظة قد تلقي بشيء من ظلال الشك على مصدرية الوحي ، بأن تربط نزوله ، بشكل آلي ، مع ما هو سائد في الثقافة الشعبية آنذاك .

إن اختيار غار حراء مع ما يمكن أن يثيره من شك ، لا بد أن يكون من ورائه غاية أعظم أحوجت الإسلام إلى أن يركب هذا المركب الصعب وأن يتحمل هذا المثير المشكك من أجلها ، وأظنها تكمن في إشارة سمائية إلى كون الغار المنعزل ، في مكان شاهق ، يوفر للرسول ﷺ لحظة تأمل عقلي خالص ، فمقامه بغار حراء لم يكن للعبادة ، إذ لم يكن عنده شرع يعبد اللّه به ، وما يليق به أن يفعل ما تنزه عنه " الحنفاء " المعاصرون له ، حين توقفوا عن العبادة قائلين : « اللهم لو نعلم الوجه الذي نعبدك عليه لفعلنا » . ولم يكن مقامه فيه للدراسة ، فلقد كان أمياً وليس عنده كتاب .

كان إذن يتأمل! التأمل بما هو فعل تركيز جواني لتمرير الملكات العقلية والذهنية ، أي بما هو إعداد فكري لمن سيحمل المشروع تبليغاً وتطبيقاً . إعداد استغرق أزيد من خمس سنوات ، وفي كل مرة كانت " الدورة التدريبية " تستغرق أياماً وأحياناً أسابيع!

ولا يعقل أن الرسول ﷺ الذي صُنع على عين اللّه وأعد برعاية اللّه ، وهيئ بأن شق صدره وطهر ، وأُدِّب فأُحسن تأديبه ، فصار على خلق عظيم ، لا يعقل أبداً أن يكون شيء من محطات حياته قبل البعثة عبثاً ، أو غير مندرج في إطار إعداده لهذا الوحي .

لقد أطال السلف الوقوف عند محطتي الإعداد النفسي والإعداد التربوي ، ونحن نوافقهم على هذا ، لحاجة النبي ﷺ للأول في أداء أمانة التبليغ ، والثاني في الصبر على الابتلاء . لكن هناك إعداداً ثالثاً أغفل أو لم يأخذ حظه في الحديث عن سيرة الرسول ﷺ قبل البعثة ، وهو الإعداد الفكري . فلو كان الرسول ﷺ يُعَدُّ للتبليغ فقط كالمسيح عليه السلام ، لكان يكفيه الإعدادان النفسي والخلقي . أما وهو يهيأ أيضاً لبناء دولة الإسلام ويؤسس المشروع الإسلامي والحضارة الإسلامية ، فإنه لا يكفيه حسنُ خلق ولا جميل صبر ، بل لا بد من ذهن لامع يقوم بتنزيل هذا على أرض الواقع ، وللواقع فقه خاص به له مقتضيات وشروط ، وهذا يحتاج إلى العقل ولا ينفع القلب وحده .

إن الإعداد العقلي ، لا يمكن أن يأتي من فراغ ، بل لا بد من بناء وتهيئة . ولقد كان ذلك عن طريق الخلوة في الغار ، استعداداً لاستقبال أمانة الوحي ، وقد استغرق ذلك ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين ، من أجل بناء ملكات العقل . إن الإعداد الخلقي يتم قبل الخامسة عشرة " شاب نشأ في طاعة اللّه " ، والإعداد النفسي يتم قبل العشرين ، فهناك تتأسس البنية النفسية للإنسان ، أما الإعداد العقلي فيترك إلى المحطة الأخيرة لاكتمال النضج . وقد تمَّ اختيار لحظة من لحظات هذا الإعداد وصل فيها الرسول ﷺ إلى قمة اكتمال تفتحه العقلي وتهيئه الفكري بالاستغراق العميق في التأمل الجواني المفصول عن الواقع بالظلمة المطبقة والصمت الأشد إطباقاً ، لتكون هي اللحظة التي اختيرت لنزول الوحي!

إن الاقتران بين ما هو نسقي وتاريخي اقتران له دلالته ، وإن هذا الاقتران له أهمية تستحق معه أن تكابد لحظة قد تثير شبهة ، رغم أن منهج الإسلام هو الابتعاد عن الشبه كلها .

إنه ليس هناك أي تفسير آخر لاختيار غار حراء لنزول الوحي غير هذا . إلا أن يكون هذا الغار في نفسه شريفاً ، أو يكون أرضاً مقدسة ، ولا دليل على ذلك . فرسول اللّه لم يعد قط إلى غار حراء منذ نزل الوحي ، ولا ذكره ، لأنه مكانٌ دلالتُه في وظيفته " الإعداد للتأمل " ، حتى إذا انتهت الوظيفة انتهى الانتباه إليه . ولهذا لم يشرع لنا في مناسك الحج أن نزوره ، ولا شرع لأهل مكة يوم يقومون فيه عنده بنسك ، بل إن ذلك يعتبر بدعة . ومعنى هذا أن الأمر كان محض اقتران وظيفي لا علاقة له بقدسية المكان ، سوى أنه مكان احتضن تأمل الرسول ﷺ وتحنثه ، وأنه شهد الدقائق الأولى لنزول الوحي ، وأنه كان مسرحاً للقاء الأول بين جبريل الأمين وبين الرسول ﷺ .